مجلة تداوليات ISSN :2992-0795
المجلد: الأول01/ العدد:الثاني02 / ديسمبر2023 / / ص ص100-118

السياق النصي ودوره في فهم الألفاظ والتراكيب القرآنية

The textual context and its role
in understanding Quranic words and structures

أ.د. مسعود صحراوي (جامعة الأغواط، الجزائر)
hammaboutaleb56@gmail.com

الملخص:
يهدف هذا العمل إلى تقديم تصور نصيّ متجدّد من خلال التعريف بأداة معرفية إجرائية حديثة توفرَ لها قدرٌ هام من "الكفاية العلمية" الضرورية في علم النص وعلم الدلالة المعاصريْن، فحققت نجاحا معتبرا في دراسة النصوص على اختلاف أنساقها المعرفية في حقول العلوم الإنسانية المختلفة، وهذه الأداة المنهجية هي "السياق النصي"، وسنحاول ربط هذا المفهوم الإجرائي بأصول علمية إجرائية اعتمدها علماؤنا القدامى ووظفوها في فهمهم لـ"دلالات اللفظ "في النص العربي عموما وللنص القرآني خصوصا، محاولين إثراء المعرفة اللغوية بعامة والقرآنية بخاصة ومحاولةً لتجديد عمل علمي ثمين عند العلماء العرب القدامى وعلماء القرآن بصفة أخص.
الكلمات المفتاحية: السياق، السياق القرآني، النص، اللفظ، التركيب.

Abstract. This article aims to present a renewed textual conception by introducing a modern procedural cognitive tool that provides an important amount of "scientific competence" necessary in contemporary textual science and semantics. It has achieved significant success in studying texts with their different cognitive styles in the various fields of human sciences, and this tool The methodology is the "textual context," and we will try to link this procedural concept with procedural scientific principles that our ancient scholars adopted and employed in their understanding of the "semantics of words" in the Arabic text in general and the Qur'anic text in particular.

Keywords: context, Quranic context, text, word**, structure.**

أولا: القسم النظري/ الإطار المفاهيمي

1- توطئة

من المناسب، على المستوى المعرفي إعادة تأسيس علم جديد أو إحياء ما اندثر منه واستلاله مبادئه وأسسه القاعدية من خبرتنا القديمة بأدوات معرفية متجددة[1]، علم يمكن تسميته: "علم النص القرآني"، ويكون همه تحديد دلالات الألفاظ القرآنية وفق الخبرات والإمكانات العلمية الجديدة، وضبط المناهج التفسيرية والتأويلية وتنظيم المعرفة التفسيرية الموزعة بين علوم قديمة منوعة ومباحث مشتتة بين التفسير والأصول والبلاغة والنحو وغيرها، ومِن ثَمَّ ضبط الأطر المنهجية للمصطلحات والمفاهيم القرآنية وللمنظومة المعرفية الإسلامية، في عصر يشهد تطورات نوعية أثَّرت بقوة وعنف على كل المنظومات الفكرية القديمة، ومنها دون شك المنظومة المعرفية الإسلامية، ومن الطبيعي والملائم أن يستعين هذا العلم النصي بأرقى النماذج التفسيرية (التحليلية والتأويلية) للقرآن ذات التأسيس العلمي الرصين والتي ساهم بها كثير من القدامى وبعض المعاصرين ولكن دون أن يقطع صلته تماما بتراثنا العلمي العبقري الضخم، ولكن المطلوب تجديد هذا التراث أو إحياء أحسن ما فيه وصياغته بلغة العصر.

وسيكون عملنا في هذا البحث الموجز كما أشرنا منصبا على تقديم تصور نصيّ متجدّد من خلال التعريف بأداة معرفية إجرائية حديثة توفرَ لها قدرٌ هام من "الكفاية العلمية" الضرورية في علم النص وعلم الدلالة المعاصريْن، فحققت نجاحا معتبرا في دراسة النصوص على اختلاف أنساقها المعرفية في حقول العلوم الإنسانية المختلفة، وهذه الأداة المنهجية هي "السياق النصي"، وسنحاول ربط هذا المفهوم الإجرائي بأصول علمية إجرائية اعتمدها علماؤنا القدامى ووظفوها في فهمهم لـ"دلالات اللفظ "في النص العربي عموما وللنص القرآني خصوصا، محاولين إثراء المعرفة اللغوية بعامة والقرآنية بخاصة ومحاولةً لتجديد عمل علمي ثمين عند علمائنا الأجلاء استخدموه في تأطير المعرفة الدينية مراعين السقف المعرفي لعصرهم ولأصالة بحثهم، وسنضرب أمثلة تطبيقية من نص الكتاب العزيز تُظهر كيف يكون للسياق النصي دور قوي في فهم معاني الألفاظ والتراكيب القرآنية وتحديد دلالاتها من خلال المعطيات النصية السياقية، وهي معطيات موضوعية يُوجب المنطقُ العلمي الأخذ بها وعدم تجاوزها.

ونُذكِّر -بادئَ ذي بَدء- أن من أهم قرائن تحديد المعنى في النص قرينة "قصد المتكلم" ولهذا أدرجَ جُلُّ علمائنا القدامى هذا المفهوم -ضمن دراستهم لمفاهيم النص والخطاب ونوّهوا بهذا المفهوم، ومنهم من صرّح

[1] – من الذين دعوا إلى إحياء مناهج التفسير وتجديدها بما يستجيب لمعطيات العصر المعرفية، منذ وقت مبكّر في عصرنا، المفكر مالك بن نبي في كتابه: الظاهرة القرآنية، دار الفكر، 1981، الصفحات من 57 إلى 67.

بذلك[1] باعتباره إحدى القرائن الكبرى في تحديد المعنى، فهو " الفائدة" الذي يبتغيها المتكلم من الخطاب و"الثمرة" التواصلية التي يرجو تحقيقها، فلن يكون هناك "نص" ولا "خطاب" دون "قصد"، وهذا قريب مما يسمّيه التداوليون المعاصرون بـ"القصدية" "**Intentionnalité**" في كلام المتكلم، وخصوصا ما قرّره الفيلسوفان المعاصران ج. ل. أوستين **Austin** وتلميذه ج. سيرل**Searle** ، في "نظرية الأفعال الكلامية" التي هي من أهم مفاهيم "التداولية" وأفضل إنجازاتها.

2-السياق:

أشار علماؤنا القدامى إلى قاعدة ذهبية مضمونها أن أفضلَ طريقةٍ للتفسير هي تفسيرُ القرآنِ بالقرآن[2]، وتُعدُّ هذه الملاحظة، في رأينا، إشارةً إلى منهج قويم في "علم الدلالة " والذي أصبح يعرف اليوم بـ"المنهج السياقي"، وهو المنهج الذي جعل للسياق بنوعيه الدور الحاسم في فهم النصوص وتحديد معاني الألفاظ وضبط دلالاتها، فقد اتفق اللسانيون المعاصرون على أن علاقة الكلمة مع الكلمات الأخرى في "النص" هي التي تحدّد معناها، وصرّح زعيم المدرسة السياقية فيرث **Firth** بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال "تسييق الوحدة اللغوية"، وعليه فإن دراسة دلالات الكلمات تتطلب تحليلا للأنماط السياقية، وقد تقتضي أحيانا تحليلَ الطبقات المقامية التي ترد فيها، فمعنى الكلمة يتحدد وفق السياقات التي ترد فيها.

وقد كان علماؤنا القدامى مدرِكين لأهمية السياق النصي في تحديد المعنى وواعين بدوره الحاسم في توجيه دلالات العلامات اللغوية ولا سيما في نص القرآن الكريم؛ فقد صرح ابن قيّم الجوزية (ت 751 ه) أن السياق "يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة... وهذه من أكبر القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته[3]".

نجد في هذا النص الهام إشارة إلى أمرين:

1. مفهوم **"السياق الأصغر أو "السياق الخاص"** للنص القرآني، ودوره في تحديد الدلالة
2. علاقة التكامل الدلالي بين السياقين **"الأصغر والأكبر"**، في علاقة جدلية بينهما، قد تكون علاقة موافقة أو مخالفة، إذ كثيرا ما يفسَّر أحدهما بالآخر، أي يفسّر سياق بسياق،

[1] –وقد فعل جل علمائنا القدامى ذلك، ومن ذكر ذلك صراحة على الخصوص: الإمام الشافعي، إبراهيم الشيرازي، ابن يعقوب المغربي،ابن القيم، بدر الدين الزركشي، محمد بن عرفة الدسوقي...الخ) يُنظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار التنوير، الجزائر، ط 2020، ص 91-92 وغيرها.

[2] - بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار الجيل بيروت، ج2، ص 175.

[3] - ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، دار الكتب العربية، بيروت، ج 4، ص 10-9. ويبدو أنه نقله عن أستاذه ابن تيمية، يُراجَع: أحمد ابن تيمية، أصول التفسير، ص 93.

3. **والأول (السياق الأصغر)** محدود ضمن وحدات دلالية أو تركيبية معينة/ كالآية القرآنية مثلا، أو ما يسبق الآية وما يلحقها من الكلمات أو الآيات،
4. **والثاني (السياق الأكبر)** شامل لما بين دفتي المصحف لا تحده فواصل الآيات والسور والأجزاء والأحزاب... وهو نوعان:

- **النوع الأول** يراد به النص القرآني في كينونته الكلية الشاملة، ومراعاةُ هذا النوع أمرٌ هام جدا، وهو الذي أشار إليه علماؤنا بالإشارة إلى المحددات والمفاهيم الإجرائية، وهي قواعد نصية ثمينة كقولهم: **"فما أُجمِلَ منه في موضع فقد فُسر في موضع آخر"**، وكقولهم: **"القرآن كله كالكلمة الواحدة"**.
- **النوع الثاني** يندرج ضمنه ما سمَّوْه "**علم المناسبة**"، والمناسبةُ هي المشاكلةُ والمقاربة والشبه، ومَرجِعُها في آيات القرآن إلى معنى رابط بينها، عام أو خاص، معنوي عقلي أو حسي أو غير ذلك.[1]... ويشملُ هذا النوع عدةَ مباحث، منها: المناسبةُ بين السورة والسورة التي تليها، والمناسبة بين الموضوعات القرآنية التي تأتي مجملة في موقع ومفصلة في موقع آخر[2]، والمناسبةُ بين مطلع السورة ونهايتها، والتناسبُ والتعالقُ والانسجامُ في نظام السورة أي تسلسل الآيات داخل السورة...الخ.

<u>3/ أمثلة عن المناسبة" في النص القرآني</u>: وهذا المفهوم الأخير (مفهوم **المناسبة**) هو مفهومٌ نصيٌّ بامتياز، وهو أقرب ما يكون إلى مفهوميْ **"الاتساق والانسجام"** في علم النص المعاصر، وموضوعُه كما أشرنا آنفا "تناسبُ الآيات والسور" -كما قال برهان الدين البقاعي (809 -885 ه) الذي كان متحمسا مندفعا إلى هذا البحث، ومن أغراضه أن تُعْرفَ عِللُ ترتيب السور في المصحف وتُدركَ الحكمة والدلالات المنهاجية والفلسفية للنص القرآني من ذلك كما ذهب إليه بعض المعاصرين[3]. وقد أكّد علم "لسانيات النص" عند المعاصرين أن النص ليس مجردَ تتابعٍ من الجمل ولكنه وحدة وظيفية متسقة منسجمة[4]، هذا في النصوص البشرية، فما بالنا بنص الكتاب العزيز!؟ ولكننا في هذا العمل لا نريد أن نغامر بإسقاط بعض النظريات النصية والخطابية الحديثة على النص القرآني تحرُّجا من عدم التكافؤ المعرفي بينه وبينها-لأننا بصدد نشاط علمي هو أقرب إلى تدبر كتاب الله جل وعلا وتفسيره - مع علمنا أن بعضها قد يكون ذا كفاية إجرائية له، مثل: البنية

[1] - يُنظر: عبد الجبار توامي، نقد ترجمات القرآن في ضوء المنهج السياقي (مقالة(، نشرت في: مجلة الدراسات اللغوية، إصدار: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات والإسلامية، المجلد الخامس/ العدد الأول، 2003، ص 297/257

[2] - الزركشي، نفس المرجع، ص 175.

[3] – يُنظر: محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، دار ابن حزم، ج1، ص

[4] – يُنظر: مفتاح بن عروس، الاتساق والانسجام في النص القرآني، دار نور حوران، دمشق (سوريا)، 2018، ص 20.

الخِطابية، وعلاقات هذه البنية وأجزائها، ومبدأيْ الانسجام والاتساق، ونحو النص، ونظرية أفعال الكلام... إذا ما توبع البحث فيها قرآنيا إلى نهاياتها المفاهيمية، وقد وُجِدَ أنه قد يكون بينها وبينه بعض الملاءمة الإجرائية، كما نصَّ عليه بعضُ المعاصرين[1] استنادا إلى تحليلات بعض المفسرين القدامى.

ومن أمثلة "المناسبة القرآنية" ما نجده في سورة "الشورى" فقد ناسبت نهايتُها بدايتَها، ووافقتْ مطلعَها خاتمتُها؛ فقد بُدِئتْ بالحديث عن وحي الله جل وعلا لنبيه صلى الله عليه وسلم في قوله **[كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ]** (الشورى، 3) وخُتمتْ بالحديث عنه **[وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ]** (الشورى، 52) ، وذلك كما قال البلاغيون وعلماء التفسير بـ"رد العجز إلى الصدر"[2]، وفي ذلك تَجَلّ واضحٌ **لمناسبة** البدء للختام.

ومن أمثلتها أيضا كما أرى -ولم أجد فيما اطّلعت عليه من كتب التفسير أي إشارة إلى ذلك- أن سورة الفتح فيها أيضا ما يشبه سورة الشورى من تناسب وارتباطٍ ظاهرٍ بين مطلعها وختامها من جهة، ثم ما فيها من ارتباط بيّن بين الآيتيْن الأخيرتين في المقطع النهائي منها من جهة أخرى، أما عن مطلعها فقد بُدئت بالحديث عن "الفتح والنصر" في الآيتين (1و2) وأما نهايتها فقد خُتمت بخواتيم جديرة بالتأمّل خصوصا في الآيتيْن (28-29)، أما الآية (28) فنصها هو: **[هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا]** فالحديث هنا عن أن إظهارَ الدين حقيقةٌ وأن رؤيا الرسول- المذكورة في الآية قبلها- حقٌّ...وبذلك ناسبت ما قبلها من الآيات التي تحدثت عن الرؤيا...

أما الآية (29) فنصُّها [**مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ**..الآية] فما وجه التناسب بينها وبين ما سبقها؟ الجواب أن هاتيْن الآيتين الأخيريتيْن من السورة مترابطتان ارتباط السبب بالنتيجة أو متسلسلتان تسلسل المقدمة بالخاتمة؛ فالآية الأولى مهّدت للثانية بالحديث عن الهدف الإستراتيجي البعيد وهو **"إظهار"** الدين الإسلامي على الدين كله، والثانية بيّنت الوسيلةَ والأداة- أو الشرط المرحلي السُّنني- أي أداة تحقيق وعد الله تعالى المتمثل في إظهار الإسلام- والأداةُ هي في هذا النص **[...والذين معه أشدّاءُ على الكفار رحماءُ بينهم...]** فالذين مع محمد-صلى الله عليه وسلم- أي الصحابة- هم الأداةُ البشرية التي صُنِعتْ على عين الله ليتحقق بها هذا الوعد ولهذا جاء ذكرهم بعد ذكر الوعد الذي هو هدف إستراتيجي نهائي... وهذا منسجم مع قوله تعالى **[قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ]** (التوبة، 14) ومع آيات أخرى في القرآن بما يفيد ارتباط الأهداف الإستراتيجية

[1] – مفتاح بن عروس، نفس المرجع ، ص 421، وأيضا الصفحات: 35، 36، 37...

[2] – محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، مج 25، ص 152.

الكبرى للدين الإسلامي وظهور حجيته وغلبته الاعتقادية والفكرية -والإسلام غلاب بمبادئه وروحانيته وإنسانيته - بالأسباب البشرية، وهذه الأسباب هي الأداة التنفيذية لإرادة الله تعالى، فالأمر كله يسير سيرا سَببيا سُننيا ... ومع انتباهنا لما قد يكون في هذا التحليل السريع -على سرعته واختصاره- من بُعد تأويلي فإننا نراه منطقيا، وإذا صحّ فهمنا لارتباط الآيتين الأخيرتيْن فيما بينهما من سورة الفتح فهو سببٌ يُضاف إلى أسباب الاعتقاد بصحة القول "بمبدإ المناسبة" في نص القرآن المجيد التي بحثها علماؤنا القدامى وبعضُ المحدثين.

ونجد في تراثنا عددا كبيرا من العلماء ممن يعتنون بالسياق الأصغر ويعتدّون به في تحديد الدلالة وقد يغفل بعضهم عن السياق الأكبر، ومهما يكن الأمر فإن الأصل في القرآن أنه منسجمٌ متناسبٌ متماسكُ الوحدات، وإذا ثبت هذا بالنسبة للسور فما ظنك بالآيات وتعلق بعضها، بل عند التأمل يظهر كأن القرآن كلَّه كالكلمة الواحدة، كما صرّح الزركشي[1]، وإلى ذلك ذهب الفخر الرازي، وتحمَّس له البقاعي كما ألمحنا أعلاه... وعلى الرغم مما قد يوجد من استثناءات توحي بعدم المناسبة فإنه حقٌّ على المفسر أن يتطلب مناسبات لمواقع الآيات ما وجد إلى ذلك سبيلا موصلا،[2] ولكن عليه أن يتفادى التكلُّف في ذلك.•

ومن قبلِ ابنِ القيم بقرون كان الأصوليون والمفسرون قد تنبهوا مبكرا إلى ذلك؛ فالإمام الشافعي (150هـ- 205 هـ) ذكر مصطلح "السياق" في "رسالته" وتنبه إلى دوره في تحديد دلالات الألفاظ القرآنية وتفصيل مجملها وتخصيص عامّها، ولعله هو أول من استعمله – من علمائنا القدامى- استعمالا إجرائيا صريحا في ضبط قواعد التأليف بين النصوص (في علم أصول الفقه)، وقد أحسن الشافعي استثمار هذه الأداة ولا سيما في التفريق بين نمطين نصيين هامين تعبر عنهما الثنائية النصية: "العام والخاص" و"المحكم والمتشابه"، وهما من الثنائيات التي جعلوا معرفتها من أجلِّ علوم القرآن.

ثانيا: القسم التطبيقي

في هذا القسم من البحث سنورد نماذج تطبيقية لتحليل النص القرآني الكريم اعتمدنا في بعضها على تفاسير علمائنا القدامى وحاولنا الاجتهاد في بعضها الآخر، مع وعينا بما يسببه القول في القرآن من حرج ديني... وفي كلتا الحالتين حرصنا على تطبيق المنهج المتمثل في استثمار "مفاهيم نصية" ذات كفاية تحليلية مؤسسة علميا تكاد تكون محل اتفاق بين المحققين من علماء النص المسلمين في التراث، ولا يرفضها علم اللغة الحديث، وسنذكرها -في تحليلنا للتراكيب القرآنية- تحت عناوين فرعية تلخّص موضوع الآية:

[1] – البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 39.

[2] - يُنظر: تفسير التحرير والتنوير، ج 1، ص 81.

• - ومنَ العلماءِ من أنكر هذا البحثَ أصلا، مثل الشوكاني في "فتح القدير"، وقد غالى بعضَ الشيء في إنكاره، ومنهم من توسط مثل العز بن عبد السلام (577 هـ – 660 هـ) إلا أنه وصف بعضَ مادة هذا البحث بالتكلف بسبب تمحُّلِ بعضهم لإيجاد المناسبة فيما لا مناسبةَ فيه، مع إقراره بأن المناسبةَ علمٌ حسن.

1- التحصيل العلمي منفصلٌ عن التحقق بالتقوى:

نجد هذا المعنى في قوله تعالى من أواخر سورة البقرة تعقيبا على آية الدَيْن:

[...و اتَّقُوا اللهَ، ويُعَلّمُكُمُ اللهُ، واللهُ بكل شيء عليم] (البقرة، 280)

في الآية الكريمة جمعٌ بين العلم والتقوى في سياق واحد، ولكن في جملتيْن منفصلتيْن دون أن تربط بينهما ربطا سببيا آليا مباشرا، على غير ما يفهمه كثيرٌ من طلبة العلم، الذين يستدلون بها على أن تحقق الإنسان بالتقوى (بمعنى الورع ومخافة الله) يفضي وحده آليا وتلقائيا إلى "تحصيل العلم" دون أن يبذل جهدا آخر في تحصيله، ضمن شيوع نزعة تواكلية منافية لسنن الله الماضية في الأنفس والمجتمعات، وهذا فهم غير صحيح واستدلال غير مناسب، وبيان ذلك نصيا أن تركيب هذا الجزء من الآية الكريمة لا يساعد على هذا الفهم ولا يؤيده، وذلك لوجود "الواو" بين شطري النص، فهما جملتان منفصلتان متتابعتان لا جملة واحدة، بل ثلاث جمل كل جملة مستقلة على حِدَة، وكلها تعقيب على تشريع الدَّيْن... ولو كان المعنى المقصود هو ما فهموه (الربط السببي المباشر الآلي بين التقوى وتحصيل الإنسان للعلم) لكان تركيب الآية كالآتي: [واتقوا الله يُعلِّمْكم الله] (دون واو) في جملة واحدة لا جملتين، بما يفيد تعليق شيء بشيء آخر فيما يسمى في النحو العربي "جواب الطلب" الذي يقتضي جزم الفعل المضارع الواقع في جوابه الطلب (يعلّمْكم)... وهذا الأسلوب شبيه بأسلوب الشرط (أو هو شرطٌ معدّل)، والشرط قيدٌ على المعنى داخل التركيب كما هو معروف في علم العربية. والفعل المضارع هنا مرفوع وليس مجزوما، والجملة مستأنفة، وهذا معطى سياقي موضوعي لا يمكن تجاهله اتّباعا لأقوال غير مؤسسة، بل هذه قرينه قوية تنفي الارتباطَ المباشرَ المزعوم، العاري عن الأخذ بأسباب التحصيل العلمي.

ومن جَعلَ هذه "الواو" للتعليل ذهب إلى أنّ حصولَ العلم عِلّتُه التقوى، كأنه يريد: [اتقوا الله كي يُعلمَكم الله...] كأنّ الاتصافَ بالتقوى هو سببُ إفاضة العلوم، وإذا كان كذلك فهو وعْدٌ بالإنعام كما قال أبو عبد الله القرطبي والطاهر ابن عاشور[1]، وإلى مثل هذا القول ذهب القاضي ناصر الدين البيضاوي (ت 685 هـ)[2]، الذي صرح باستقلال الجمل عن بعضها، وهو أيضا تفسير ابن عاشور، والظاهر أنه هو رأي ابن تيمية، وهو الرأي الصواب في كل الأحوال.

ونُؤكّد هنا أنّ المنطقَ القرآنيَّ واتجاهَهُ العامَّ منطقٌ سُننيٌّ يأمر بالأخذ بالأسباب، ويعملُ على وفق سنن الهداية، وسنن الأنفس والمجتمعات وسنن الآفاق، وسنن التغيير وسنن التسخير... وهو مناف للسلوك التواكلي والذهنيات الخرافية التي شاعت بين المسلمين منذ قرون خصوصا في "مجتمع ما بعد الموحدين" بتعبير مالك بن نبي.

[1] – تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984، مج: 3، ص118.

[2] – يُراجَع: تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل...)، دار الرشيد، 2000، مج 1، ص 236.

والإنعامُ الموعودُ به هنا -بتعبير البيضاوي- هو نعمةُ إنزال القرآن بما يتضمّنه من بيان النظام المعرفي الجديد (العقائد والعبادات والتشريعات والأخلاق، وشرح سنن الهداية وسنن الأنفس والآفاق وغيرها... المبثوثة في هذا الكتاب المجيد)، بما يُفيد أنَّ على المؤمنين - خصوصا في وقت الرسول صلى الله عليه وسلم- واجبَ التقوى واللهُ سبحانه سيتولى الباقي... وهو إنزالُ العلم (الوحي القرآني) على نبيه عليه الصلاة والسلام ليعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

والعلمُ في هذا السياق ونظرائه من آيات الكتاب العزيز يُراد به "الوحيُ القرآني" خصوصا و"وحيُ الله" الذي أنزله الله على أنبيائه عموما، وقد تكرر وُرودُه في القرآن الكريم كثيرا على مستوى السياق الأكبر (العام)؛ نَذكُرُ منها في هذه العُجالةِ قولَ الحقّ تبارك وتعالى: [**ويُعلّمُكم ما لم تَكونوا تَعْلَمون**] (البقرة، 151) وقوله **[وعلَّمَك ما لم تَكنْ تَعْلمُ وكان فضلُ اللهِ عليك عظيما]** (النساء،113) وقوله في بني إسرائيل **[فما اخْتَلَفوا إلا مِن بعْدِ ما جاءَهُم العلمُ بغيا بينهم]** (الجاثية، 17) وقوله **[وما أُوتِيتُم من العلمِ إلا قليلا]** (الإسراء، 85) وقوله **[ولا تَعْجَلْ بالقرآنِ من قبْلِ أن يُقْضى إليك وَحْيُه وقل ربِّ زدني علما]** (طه، 114) ...الخ، فواضحٌ من هذه السياقات، وغيرُها كثير، أن المرادَ بـ"العلم" في سورة الجاثية "التوراة" المُنزَلَة على موسى عليه السلام، وأما في الآيات الأخرى فهو "الوحي القرآني".

وخلاصة التحليل النصي لهذه الآية أن معناها متوافقٌ مع السننِ الكونيةِ العامةِ؛ وهو عدمُ حصولِ العلم دون الأخذ بالأسباب، أي دونَ بذلِ أي جُهدٍ وسَعْيٍ في التحصيل وسَهَرٍ ومكابدةِ الكتب ومجالسةِ العلماء والأساتذة والشيوخ والأخذِ عنهم وسؤالِهم ومدارستهم - إضافة إلى توفيق الله... فاكتسابُ العلمِ للآحاد من الناس جارٍ على السنة الكونية العامة في البشر، كما قيل (إنما العلمُ بالتعلم)... فليس هناك تلازمٌ سببي مباشرٌ بين التقوى وحصول العلم، وهذا المعنى يصدّقه تاريخ أمتنا وتاريخ البشرية كلها.

لكن من الضروري أن نُذَكّر -حسب التصور الإسلامي- بأنّ التحقق بـ"التقوى" يزيد العلمَ بركة ونفعا، والتقوى تتسبب في تيسير الأمور كلها وتُبارك في الأرزاق والأعمار والجهود والأوقات وغيرها في الدنيا، فضلا عن مصير الفرد في الآخرة.

2- بلاغة الحذف في آية قرآنية

في النموذج التطبيقي الثاني نحلل قول الله تبارك وتعالى من سورة الرعد: {**وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ**} (الرعد، 31)

نحلل هذا النص تحليلا نصيا بلاغيا، لأن من الخصائص النصية في علم النص القرآني **ظاهرة الحذف**، إذا توفر في النص من القرائن ما يمنع اللبس في فهم المعنى، إذ **لا حذفَ إلا بقرينة**، ومنه في هذه الآية **حذف جواب الشرط** (ما تحته سطرٌ في صدر الآية) وما فيه من شحنة دلالية وقوة بلاغية، في هذه الآية العجيبة البناء، الغالبة في ساحة منازلة الخصوم، ضمن سياقها الحجاجي مع الآيات قبلها وبعدها في انسجام دلالي مترابط وتسلسل حجاجي واضح، واتساقا مع الغرض الأساسي للسورة، وآيات القرآن الكريم مترابطة في سياق تسلسلي لا يجوز الفصل بينها حتى لا نقع فيما نهى القرآن عنه في مثل قوله [**كما أنزلنا على المُقْتَسِمين، الذين جعلوا القرآن عضين**] (الحجر، **90- 91**) لأن بتر أي كلام عن سياقه هو إهدار لدلالته، وفيه إساءة منهجية واضحة للنص وتجاوز لفهم قصد المتكلم ومراده من الخطاب... وعليه سيكون خطأ منهجيا لو أننا قمنا ببتر الآية القرآنية -أي آية- عن سياقها وما يحُفُّها من الآيات الواردة معها في سياقها وفي نفس الموضوع، وما كان لنا أن نفعل ذلك، بل الواجب من الوجهة المنهجية أن نربط الآية الكريمة بسياقها وألا نخرجها عنه كما بيّنا في فقرة سابقة، لأن السياق يوضح المبهم ويفصل المجمل ويخصص العام، كما قال ابن القيم في نصه السابق... والسياقُ في قضية الحال غرضُه التنويهُ بهذا القرآن العزيز وأنه منزل من عند الله وإبطال ادعاءات المشركين واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم له... والذي نراه - في مسألة بداية هذا السياق النص الجزئي وفي انقطاعه- أن الكلام في هذا الموضوع يبدأ من الآية 27 وينقطع الكلام عن الموضوع عند قوله عز وجل في الآية 39، لينتقل بعدها إلى موضوع آخر... وهو سياقُ تنويه بالقرآن الكريم وإشادة بصدقية مصدره الرباني وأنه كلام الله عز وجل.

وأما حذف جواب الشرط - موضوع الحديث (ما تحته سطرٌ في الآية)- ففيه وجوه بلاغيةٌ حجاجيةٌ عديدة نذكر منها:

1- جواب "لو" محذوف لدلالة السياق عليه... وهذا متكرر في القرآن، ومنه في الأنعام **[ولو ترى إذ وُقِفوا على النار...]** وقوله **[ولو ترى إذ وُقِفوا على ربهم]** وقوله في السجدة **[ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم...]** فهو إذن أسلوبٌ مألوف من أساليب القرآن الكريم، وكثيرا ما يستعمل القرآنُ هذا النمطَ الأسلوبيَّ القائم على العدول الكمّي بالحذف في حجاج الخصوم وتقريعهم وإزهاق باطلهم.

2- ومن فوائده تكثير الاحتمالات الدلالية وتوسيع مجال الفهم والتأويل؛ إذ لو ذُكر الجوابُ لكان مقصورا على وجه واحد، هو الوجه المذكور لا يُجاوزه... وقد أشار إليه الخطابي في بيان الإعجاز القرآني، وسنذكر نصه بعد قليل.

3- ومنها الإيجاز غير المخل

4- ومن فوائد هذا الحذف **"التعريض"** بعظيم ضلالتهم وأنها بلغت المنتهى، ذكره صاحب "تفسير التحرير والتنوير" ومثّل له من الشعر العربي بقول أبيّ بن سُلمِي الضبي (من ديوان الحماسة)[1]

ولو طار ذو حافر قبلها////لطارت ولكنه لم يطر

بما يفيد أحد المعاني المحتملة للآية وهو أنه لو كان من شأن الكتب السماوية السابقة تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى لكان هذا القرآن كذلك، أي مثل تلك الكتب... أو بعبارة أخرى أنه لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك... وفي ذلك من التعريض بكفار مكة ما فيه، على معنى أن الجبال الصماء لو أنزل عليها هذا القرآن لكانت تأثرت وتصدعت، وأنتم مخاطبون به ومع ذلك لم تؤمنوا به، فالجبال الجامدة الصمُّ الصلابُ أفضل منكم وأقرب للتأثر بهذا القرآن لو كانت هي المخاطبة به.

5- ومن فوائد الحذف في الآية ما ينطوي عليه النص من دلالة على **التفخيم والإشادة**، مما يسمى لدى التداوليين وعلماء النص: "إستراتيجيات الخطاب"... وفي ذلك تبرز إستراتيجية خطابية واضحة هي تعظيم شأن القرآن والتنويه بمكانته... كما قيل: (لو رأيت عليا بين الصفوف!) تفخيما للممدوح وتنويها بشأنه.

6- ومما يمكن أن نستشفه- ونحن نتدبر بلاغة هذا النص الكريم - تسليةُ رسول الله بأن هذا القرآن عزيزٌ كريمٌ مجيد، وهو وحده كافٍ لإقناع من يريد الاقتناع [**فبأي حديث بعده يؤمنون؟!**]، بل لو خوطِبَ بهذا القرآن جبلٌ لآمن واستجاب...فما عليك من مسؤولية يا محمد إن لم يستجيبوا لك فالعيب ليس في هذا الكتاب المبارك ولا في دينك ودعوتك، وليس فيك أنت شخصيا، ولكن العيب في الذين كفروا به فلم يستجيبوا له، فهم الملومون المآخذون وما أنت بمؤاخذ ولا ملوم.

7- ونختم هذه الإطلالة النصية البلاغية السريعة على هذا النص الكريم بكلام ثمين للإمام الخطابي (**319-388** هـ) في المسألةٌ أورده في سياق الحديث عن الإعجاز مشيرا إلى قاعدة نصية ثمينة رَبَطَها بالقرينة المُعْلِمة للحذف (إذ لا حذفَ إلا بقرينة)، **قال الخطابي: "المذكوريدل على المحذوفِ والمسكوتِ عنه.. والمعقولُ من الخطابِ عند أهلِ الفهمِ كالمنطوقِ به. .. وقد قيل: الحذفُ في مثل هذا أبلغُ من الذكر، لأن النفسَ تذهبُ في الحذفِ كلَّ مَذْهب...ولو ذُكر الجوابُ لكان مقصورا على الوجه الذي تناوله الذكر**"[2].

وهذا المعنى الذي أشار إليه الخطابي يلخص قانونيْن من قوانين الحذف في النص:

الأول: ما ذهب إليه التداوليون وعلماء النص المعاصرون في ظاهرة "الإضمارات التداولية" من قبيل : مضمرات الخطاب، أو المسكوت عنه الذي يُفهَم من المقام...

والثاني: الوظيفة التداولية للإضمار.

[1] - ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 13، ص 142.

[2] - يُنظر: بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، ص 52.

الجزء الثاني من القسم الثاني:

في الفقرة الموالية سنطبق آلية "السياق وقرائنه" في تحليل نماذج من الألفاظ المفردة بعد أن بينا معاني نماذج تركيبية في الفقرة السابقة، ونقترح على القراء الرجوع إلى بحث كتبناه منذ سنوات في "مجلة الدراسات اللغوية" السعودية[1] يبيّن كيفية استثمار أداة "السياق" في فهم دلالات الألفاظ وخطأ المبالغة التأويلية من أحد أصحاب القراءات المعاصرة[2] في فهم للقرآن.

معنى كلمة "الكتاب":

وردت **كلمة "كتاب"** في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، وكانت تحمل دلالات مختلفة كلُّ دلالة مرتبطة بالسياق الذي وردت فيه، فملاحظة ما قبلها وما بعدها وتحليل بنيتها النصية القرائنية كفيلة بتوجيه المفسر والباحث نحو المعنى المقصود، وأذكر هنا أشهرها وأكثرها ورودا في هذا الكتاب المبارك:

1- وردت كلمة "الكتاب" بمعنى **"القرآن"** في سياقات صغرى كثيرة، منها قول الحق جل وعلا: **[ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ]** (البقرة، 2) **ومنها قوله تعالى: [كتابٌ أُحْكِمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير](هود، 1)، ومنها قوله [وقد نزّل عليكم في الكتاب] (الأحقاف، 30)** ومنها قوله **[قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ]** (الأحقاف، 30) والقرينة من بعدها هي في قوله **[وإذ صرفنا إليك نفرا من الجنّ يستمعون القرآن]** (الأحقاف، 29)...الخ

فبملاحظة - السياق القرآن الأكبر - لكلمة "الكتاب" والسياقات الصغرى والمواضع التي وردت فيها وما يصاحبها من قرائن في بنيتها النصية يتحدد بدقة معناها المراد، ألا وهو "القرآن" لا غيره.

2- ووردت كلمة **"الكتاب"** بمعنى **"التوراة والإنجيل" و"أهل الكتاب"** بمعنى **"أهل التوراة والإنجيل"** (أي اليهود والنصارى) مجتمعين أو متفرقين حسب السياقات النصية الصغرى وما تحمله من قرائن، منها قول الحق جل وعلا: **[يا أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ]** ويراد بها هنا **"النصارى"** على الأخص بقرينة قوله في نفس سياقها الخاص **[إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ]** (النساء، 171)، فهذه قرينة قوية في تخصيص معنى اللفظ وتحديده بما ذكرنا، ولما اقترنت كلمة "كتاب" بكلمة "أهل" كان معناها قطعا "اليهود والنصارى" مجتمعين أو متفرقين حسب قرائن السياق، ومن الآيات التي تُصرف فيها الدلالة إلى "التوراة" وحدها، ثم القرآن وحده، قوله تعالى في الأحقاف: **[وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ**

[1]- مسعود صحراوي، دلالات الألفاظ في القرآن من منظور سياقي، في: مجلة الدراسات اللغوية (المجلد التاسع – العدد الثاني) ربيع الآخر – جمادى الآخرة 1428هـ/ ماي– جوان، 2007.

[2]– هو المفكر السوداني الراحل: محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، دار المسيرة، دار ابن حزم، 1995.

وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ] (الأحقاف، 12) فتكررت كلمة **"كتاب"** مرتين في نفس الآية، والمراد بالأولى **التوراة**، والثانية **"القرآن"**.

3- ووردت كلمة **"الكتاب"** في النص القرآني بمعنى **"كتاب الأعمال"** الذي تُعرض فيه أعمالُ العباد يوم القيامة، ومن المواضع التي ورد فيها هذا المعنى قوله سبحانه وتعالى **[وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا]** (الكهف، 49)، والقرينة هنا قوله: **[وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ]** ومن هذا المعنى قوله جل وعلا **[فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ]** (الأحقاف، 7)

4- ووردت كلمة **"الكتاب"** في النص القرآني بمعنى **"الكتاب الإلهي الذي أثبتَ فيه علم الله الشامل لعالَمَيْ الغيب والشهادة"** وهذا المعنى مقصود في آيات الذكر الحكيم في سياقات كثيرة منها **[وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ]** (الأنعام، 38) والمعنى الذي تميل إليه النفس أكثر هو ما أشرنا إليه آنفا (أي الكتاب الإلهي الذي يحتوي علم الله الشامل) بخلاف ما ذهب إليه جمعٌ من المفسرين قديما وبعض الفضلاء حديثا، والقرائن التي نعتمدها فيما ذهبنا إليه كثيرة وقوية، منها:

- التمهيدُ للمعنى بالحديث عن ظواهر ومخلوقات كونية منها: الدابة في الأرض، والطائر يطير بجناحيه،
- النصُّ على أنها "أممٌ أمثالكم"... أي مخلوقات منتظمة في تجمعات حيوية تشبه التجمعات البشرية والحيوانية الأخرى في بعض خصائص الاجتماع القرينة كلمة **(أمثالكم)**.
- ذكرُ "أمميّتها" يشير إلى الإحاطة بأنماط حياتها وأكلها وشربها وتكاثرها وأصنافها وتاريخها ومآلاتها الوجودية... إلى غير ذلك من خصائصها وشؤونها ومصايرها التي ذكرتها آياتٌ أخرى في السياق القرآني الأكبر...
- ثم أخبرنا السياق أن ذلك كُلَّه مسطورٌ في كتاب لا يُفرّط في شيء، والسؤال هنا: أي كتاب هو هذا الذي أُحصيتْ فيه الكائنات الحيوانية كلها بأنواعها وأنماطها؟ هل ذُكر ذلك في القرآن الكريم؟ وأين؟ وفي أي سورة أو آية؟

ومن القرائن التي تؤيد هذا المعنى في السياق القرآني الأكبر أن هذا "الكتاب" مذكور في آيات أخرى، منها: **[وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ]** (الأنعام، 59)، ومنها **[وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ**

رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ] (هود، 6) وآيات أخرى كثيرة على مستوى السياق القرآني الأكبر عبرت عن هذا المعنى الذي نشير إليه، والله أعلم.

فهذه بعض معاني كلمة "كتاب" كما وردت في السياقات النصية للقرآن الكريم مشتركا لفظيا يحتمل دلالات متعددة لا يحدّدها ولا يكشفها إلا السياق بقرائنه الضابطة للمراد الموجّهة نحو المعنى المقصود، ولا يُعَدُّ اللفظ "مشتركا لفظيا" إلا إذا نظر إلى الكلمة خارج السياق، أما داخل السياق النصي المعين فهو لا يحتمل إلا معنى واحدا على الأرجح بسبب القرائن المرجّحة.

هذا وغنيٌّ عن البيان أن لكلمة "**كتاب**" معانيَ أخرى في القرآن الكريم، واستقصاؤها كلها يطول فيه الكلام ويتجاوز الفضاء والوقت المتاحيْن في هذا البحث؛ فقد وَرَدتْ بمعنى: **الفرض الواجب (...كُتِبَ عليكم، كتبنا عليهم..)**، وبمعنى **العهد والميثاق (...كتابَ اللهِ عليكم...)**...الخ

5-/ الكتاب-القرآن: مما يتصل بهذا اللفظ ثنائيةُ "كتاب، قرآن" التي زعم الراحل محمد شحرور أنهما مختلفتان، وأن لفظ "**الكتاب**" يفيد تجميع أبواب وموضوعات كثيرة في كتاب واحد، وهو -في القرآن- خاص بالتشريع...الخ، وأما لفظ "**القرآن**" فخاص للعقائد وقصص الأنبياء...الخ، وهذا كله تخمين لا دليل عليه من المنهج العلمي القويم، وقد ورد في نص القرآن بقرائنه السياقية ما يدحض هذا الكلام ويبطل المنهج من أساسه...ومما نذكره في هذا الشأن ما ورد في سياقين قرآنييْن (الخاص والعام)، في ثلاث سور من القرآن:

- **أولهما** السياق الأصغر (الخاص) فقد وردت في سورة الأحقاف آيتان متتابعتان فيهما نفس المشار إليه (أو المدلول): **[وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)** (الأحقاف، 29-30)، ففي نفس السياق ذُكر المشار إليه باسميْن: "القرآن" و"الكتاب".
- **والثاني** في السياق القرآني الأكبر وردت آيتان في سورتين مختلفتيْن، الأولى في الكهف **[ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ قيماّ لينذر بأسا شديدا...الآية]** (الكهف، 1-2)، في "الزمر" **[قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ]** (الزمر، 28) فآيتا الأحقاف ذكرتاه باسمِ "**القرآن**" أولا ثم في نفس السياق الخاص ذكرتاه باسمه الثاني "**الكتاب**"، فهما اسمان لمسمّى واحد، والآيتان الأخيرتان (في "الكهف والزمر") فيهما تفسيرُ سياق بسياق، أي أن "الكتاب" الذي وُصف في الكهف بأنه "لم يجعل له عوجا" هو نفسه الذي وُصف في الزمر بأنه "قرآن عربي ير ذي عوج"... وهذا تحليلٌ موضوعيٌّ قرائنيٌّ يُبطل منهج المؤلف ويُقوّض الأساس المفاهيمي ألذي بنى عليه كتابه "القرآن

والكتاب"[1]، والذي ذهب فيه إلى اختلاف المصطلحين السابقين وأضاف إليهما ثالثا هو مصطلح "الذكر".

ومن الحجج التي اتكأ عليها الباحث محمد شحرور أن اللفظين وردا متعاطفيْن، في مثل قوله تعالى: **[الٓرٰۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٖ مُّبِينٖ]** (الحجْر، 1) فقال: "في اللسان العربي لا تعطف إلا على متغايرات"[2]، ولا شك في أن هذه الحجة مردودة عليه لأنه لم يفهم المقصود من "التغاير"، فالتغايرُ هنا زيادة وتنويعٌ في المعنى باعتبار "**جهات الدلالة المكثفة**" وليس تغيرا في "المشار إليه"، فـ"المشار إليه" واحد هو **القرآن باعتبار أنه مقروءٌ**، وهو نفسه **الكتاب باعتبار أنه مكتوبٌ**، ولأن في كلا اللفظيْن جهة دلالية ليست في الأخرى حسُن الجمع بينهما، كما قال ابن عاشور[3]، وهذه الظاهرة النصية متكررة في القرآن لكريم، منها: ومنها قوله تعالى: **[لا ترى فيها عوجا ولا أمتا]** (طه، 107) قال الخليل: العوج والأمت بمعنى واحد، أو هو تشقيق لأحد المعنييْن من الآخر، ومنها قوله: **[أَمْ يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم]** (الزخرف : 80)، فالسرُّ ما يكتمونه في أنفسهم والنجوى ما يَتسارُّون به بينهم ولا يُطلِعُون عليه غيرَهم.

اللفظ الثاني: كلمة "الرُّوح": النموذج التطبيقي الآخر الذي نحلله سياقيا معتمدين على القرائن النصية هو كلمة **"الروح"** فقد وردت هذه الكلمة في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، وهي تعني معانيَ مختلفة مرتبطة محدّدة بالسياق الذي وردت فيه، فهي من هذه الجهة "مشتركٌ لفظي" يتسع نظريا ليشمل عددا من المعاني ولكنها في السياق الخاص (أو الأصغر) لا تحتمل إلا معنى واحدا كما قلنا في كلمة "كتاب"، والسياقات التي وردت هذه الكلمة تشير إلى عدّة معان، منها:

1-معنى **"الوحي القرآني"**، وردت هذه الكلمة بهذا المعنى في مواضع كثيرة في القرآن الكريم غير أن هذا المعنى ورد في لفظ مركّب أي في سياق تركيبي لا سياق إفرادي بنص **"الروح من أمر ربي"** أو **"الروح من أمرنا"** أو **"الروح من أمره"**، ونجد ذلك في قوله تعالى: **[يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ]** (النحل، 2) والقرينة التي نعتمدها هنا هي قوله **[أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ]** و**"أن"** تفسيرية شارحة لمضمون **"الروح من أمره"** الذي تنزّلت به الملائكة على من يشاء الله من عباده، وهم الرسل والأنبياء، بمعنى أن مضمون الوحي الذي جاءت به الأنبياء هو "التوحيد والتقوى"، وهذا الإنذار بالوحي هو المذكور باللفظ نفسه في سورة غافر **[رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ]** (غافر، 15)، وإلقاء الروح معناه: إنزال الوحي وهو نفس المعنى

[1] –محمد شحرور، القرآن والكتاب/قراءة معاصرة، الأهالي للطباعة والنشر، د ت، 51 وما بعدها.

[2] – نفس المرجع، 58.

[3] – تفسير التحرير والتنوير، ج 14، ص 8.

المذكور في سورة الإسراء في قوله تبارك وتعالى **[وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا]** (الإسراء، 85) والقرائن التي تقوّي هذا المعنى في سورة الإسراء هي:

- الآيات السابقة في السياق القرآني الأكبر بنفس اللفظ (من أمره، أمر الله- أمر ربي...)، ونسبتُه إلى أمر الله تعالى يفيد أنه من "عالم الأمر" لا من "عالم الخلق"، وهما المذكوران في آيات أخرى منها: **[ألا له الخلقُ والأمر]** (الأعراف)
- السياق الأصغر نفسه (الخاص) الذي وردت فيه الآية وهي قوله **[وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا]** (الكهف، 86، 87، 88) فالكلام متصل غير منقطع وهو يتحدث عن الوحي القرآني **(الروح من أمر ربي)** وقرائن هذا السياق النصي على أن المراد هو (القرآن)، وهو المعنى الذي لم يستبعده بعض المفسرين ومنهم القرطبي حين ذكر عدة معان للآية منها هذا[1]، وإذا ما ربطناه بالسياق العام في آية النحل وآية غافر السابقتين كان هذا مرجّحا قويا على إفادة المعنى الذي ذهبنا إليه، والقرآن يفسّر بعضه بعضا.
- وفي هذا السياق الخاص نفسه سؤالٌ وجوابُه، السؤال في: **[وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ]** والجواب جوابان: الجواب الأول لإفادة ماهية القرآن ومصدره **[قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى]** والجوابُ الثاني لإفادة إعجازه وأنه فوق طاقة المخلوقين من الإنس والجنّ مجتمعين: **[قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا]**، فقال لهم أولا ما معناه **"هذا روحٌ من أمر الله"** وسماه روحا لأنه يُحيي موتَ القلوب ويُحيي النفوس ويطهرها ويزكيها كما جاء في آيات أخرى، ثم قال له قل لهم **[لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ لا يستطيعون أن يأتوا بمثله]**.

وما دام بعض القدامى قبلوا هذا المعنى ولم يستبعدوه، مثل القرطبي، الذي قرن هذه بآية الشورى السابقة **[وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ]** (الشورى، 52) وفسّرها بها ونسب هذا التفسير للقشيري[2]، فقد أشاروا إلى مقبولية هذا التفسير فلِمَ يُصِرُّ بعض المفسرين والوعاظ منذ القديم وحتى عصرنا على روايات ظنية غير قطعية مُصادِمة لمعطيات السياق النصي وقرائنه وهي معطياتٌ موضوعية ليست من الذاتية في شيء؟ ولو عادوا إلى سياق الآية والقرائن والبنية النصية في سياقها الخاص (الأصغر) وفي سياقها العام (الأكبر)، وإلى أقوال بعض المحققين من المفسرين لتبين لهم وجهُها الدلالي الأقرب.

[1] –محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير)، تفسير الآية من سورة الإسراء، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، محمد مصطفى الخن ومعتز كريم الدين، مؤسسة الرسالة، 2006، ج 13، ص 166.

[2] – نفس المرجع، ج 18، ص 509.

2- ومن معاني "**الروح**" في القرآن الكريم معنى ثان هو أنها اسم عَلَم **لـ"جبريل"** عليه السلام، ورد هذا المعنى في مواضع في القرآن الكريم منها قوله تعالى: **[نزل به ٱلرُّوحُ الأمينُ عَلَىٰ قلبك لتكون من المنذَرين بلسان عربي مبين]** (الشعراء، 192 وما بعدها) فالسياق هنا يتحدث عن نزول القرآن وأنه تنزيل من الله تعالى وأن الذي نزل به جبريل من أجل وظيفة الإنذار وأنه بلسان عربي مبين.

هذا، وللروح في القرآن معان أخرى بحسب السياق وما فيه من قرائن.

وبعد فهذه نماذج تطبيقية عن القيمة المنهجية لأداة السياق وقرائنه ومعطياته النصية الموضوعية التي تحدد معاني النص القرآني ودلالات بنيتيه التركيبية والدلالية وتضافر قرائنهما المتعددة في الكشف عن المعنى أو التوجيه إليه، غير أن هذه الأداة النصية قد لا تكفي وحدها في بعض الحالات، فيُضم إليها حينئذ أدوات تفسيرية أخرى ومنها على الخصوص السنة النبوية الصحيحة ولا سيما السنة العملية. ومن أمثلة تفسير السنة النبوية للقرآن- في قوله تعالى **[يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون]** (المائدة-105)- ما أخرجه الترمذي عن أبي أمية الشعباني أنه قال: سألت عنها رسول الله-صلى الله عليه وسلم- فقال:"بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مُؤَثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام" وما أخرجه أصحاب السنن أن أبا بكر الصديق **قوله عزوجل: (ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)** صعد المنبر وقال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: **(ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)** وتضعونها فى غير موضعها ولا تدرون ما هى، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الناس إذا رأوا منكرا فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه"، وفى رواية "لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر أو ليستعمِلَنَّ اللهُ سبحانه وتعالى عليكم شِرارَكم فليسومَنَّكم سُوءَ العذاب، ثم ليدعُنَّ اللهَ عز وجل خيارُكم فلا يستجاب لهم"[1].

قال الطبري[2] في التفسير: وأولى هذه الأقوال وأصح التأويلات عندنا بتأويل هذه الآية ما روي عن أبي بكر الصديق.

خصائص العلم الذي يدرس النص القرآني ومصادر استمداده: بقي أن نشير في الأخير إلى أن هذا العلم النصي القرآني المنشود الذي اقترحناه بعون الله منذ سنوات على الباحثين المختصين وطلبة العلم، والذي

[1]– يُنظر: صحيح الترمذي، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي1996، ج5، ص 146. هذا الحديث رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وضعفه الألباني رحمه الله تعالى انظر حديث رقم: 2344 في ضعيف الجامع. **يُنظر**:: https://ar.islamway.net/fatwa/42991/

[2] – جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: بشار معروف عواد/الحرستاني، مؤسسة الرسالة، 1994، ج3، 189.

نعتقد أن حاجة الإسلام والمسلمين إليه ماسة معرفيا، لا يُلغي من الجهة المبدئية، التراث الإسلامي الضخم مثل كثير من مباحث علوم القرآن، والمباحث النحوية والبلاغية والأصولية وحتى الكلامية والفلسفية... ولا يحق له أن يرفضها فينبَتَّ عن أصوله ومصادره التاريخية - كأنه بلا ذاكرة علمية وحضارية ذات أبعاد عالمية- بل يأخذ من تراثنا الإسلامي العالمي الثري الغزير ما يخدم المنظومة الإسلامية في عصرنا، على أن يسعى الباحثون في نطاقه إلى الفصل بين محليات التراث وعالمياته، وظنياته وقطعياته، وظرفياته وأبدياته، كما لا يُلغي ما أنتجته المعارف المعاصرة (علوم النص وغيرها) ولكن لا يتبنى كل مفاهيمها النظرية والإجرائية، وخاصة دلالاتها الفلسفية الوضعية المادية.

وربما يكون من المناسب أن تُدرِج الجامعات "الإسلامية" وكليات الشريعة، في العالمين العربي والإسلامي، هذا العلم القديم المتجدّد في برامجها وأن تحرص على الإفادة من معطياته، ولا سيما الأساتذة والطلبة المختصون في علوم القرآن والتفسير، والمشتغلون بالدعوة؛ فغيرُ حصيف ألا تستفيد أجيال الطلبة من التطورات النوعية المعرفية الهائلة التي يشهدها عصرنا وألا توظفها في خدمة القرآن الكريم والدعوة إليه بما يظهر إنسانية الإسلام وعالمية القرآن وعلميته ومعقوليته وخلوده وثراءه، فالناس الذين ينبغي أن نخاطبهم نحن المسلمين إنما نخاطبهم بالقرآن **[وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا]** (الفرقان، 52) القرآن الذي يُقنعهم ويبهرهم ويستوعب ما لديهم استيعابا يتجاوز موروثاتهم الروحية ويصحح ما فيها ويقوّض بُناهم الدينية المحرَّفة ومنظوماتهم المعرفية المادية المهترئة المفلسة.

وهذا العلم المأمول تجديده، والذي لا يهمل أدوات الفهم وآلياته الاستكشافية وقواعده المنهجية التي أنجزها العقل البشري في عصوره المختلفة- كما قلنا -لا يجوز له، بل ليس من حقه، أن ينسى أن بعض تلك الخصائص والأدوات والقواعد المنهجية هي من وحي آيات الذكر الحكيم وتوجيهه، فقد يكون من هذه الآليات والقواعد المنهجية ما هو توجيهٌ إلهيٌّ خالص في القرآن الكريم ذاته، فليس لدارس القرآن إلا أن يتقيد بها ويقف عندها ويسلّم أمره إليها، والتسليمُ للنصوص القرآنية علمٌ وعِزّ... وهذه خاصية هامة من خصائص القرآن الكريم، فهو "يحدثنا عن نفسه"، أي عن "بعض خصائصه وأدواته المنهجية والمعرفية-الإبستيمية"، ونذكر أهمها بإيجاز عسى أن تسنح فرصة أخرى للعودة إليها:

- كونه من عند الله تبارك وتعالى، وهذا يعني أنه **[لَا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ]** (فُصِّلت- 42) وأن من صفاته أن **[تَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ]** (الأنعام- 115)، وكيف يأذن الله أن تبدّل كلماته والحكمة الإلهية مُودَعة في هذه الكلمات!؟ ومن ثَم تحققت لهذا الكتاب مميزات وخصائص لم تتوفر لكتاب قبله ولا بعده، ومنها هذه

الخصائص: "المطلَقِيّة" و"الكونية" و"الإنسانية" و"الإعجاز "بوجوهه المختلفة، ولعل أهمها – في هذا العصر – الوجه "المعرفي الكوني الإنساني العميق" للإعجاز.

- دعوة القرآن المتكررة إلى تدبر آياته، فالتدبر هو المفتاح الناجع الذي به تفتتح مغاليق الكتاب العزيز، وهو واجب على كل من يمتلك أدوات التدبر العلمية، إضافة إلى من عنده الاستعداد الروحي النفسي لمعانقة الآفاق القرآنية النورانية، قال عزّ من قائل: **[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ]** (النساء-82) وقوله جل وعلا **[أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ]**(المؤمنون- 68)
- توجيه القرآن ذاته إلى أنه يؤخذ في كليته وأن من الخطأ العلمي والديني تجزئته لأن ذلك يحول دون فهمه ودون الإيمان به، وقد يكون ذلك التجْزِيءُ إخفاءً لما أنزل الله: **[كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ]** (الحجر- 91، 92)، وتعضية القرآن: تجزيئه وتقطيعه أجزاء ثم الغفلة عن بعضه في تفسير بعض.
- خلوه من الاختلاف والتناقض **[أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا]** (النساء- 82) مما يدل على انسجامه المعرفي (الاصطلاحي والمفهومي) من أول كلمة فيه إلى آخر كلمة، سواء من جهة ترتيب النزول أو من جهة ترتيب المصحف. وهذه الميزة ناجمة عما قبلها؛ أي أن الذي يأخذ هذا الكتاب العظيم في كليته هو الذي يصل إلى خاصية الانسجام الكلي والتناغم التام الذي يطبعه. ...الخ

واللهُ أعلم، وفوقَ كُلِّ ذي علمٍ عليم، والحمد لله رب العاملين.

المراجع:

بعد القرآن الكريم:

1- البيضاوي (القاضي)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مج 1، دار الرشيد، 2000.

2- الترمذي (أبو عيسى)، جامع الترمذي، صحيح الترمذي، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي 1996،

3-توامي (عبد الجبار)، نقد ترجمات القرآن في ضوء المنهج السياقي (مقالة)، نشرت في: مجلة الدراسات اللغوية، إصدار: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات والإسلامية، المجلد الخامس/ العدد الأول، 2003، ص 297/257

4-حاج حمد (محمد أبو القاسم ـ)، العالمية الإسلامية الثانية/جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، دار ابن حزم، 1995.

5-الخطابي، بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)،

6-الزركشي (بدر الدين)، البرهان في علوم القرآن، ج2، دار الجيل بيروت.

7- صحراوي (مسعود)، التداولية عند العلماء العرب، دار التنوير، الجزائر، ط 2020.

8- صحراوي (مسعود)، دلالات الألفاظ في القرآن من منظور سياقي، في: مجلة الدراسات اللغوية (المجلد التابع - العدد الثاني) ربيع الآخر - جمادى الآخرة 1428هـ / ماييوليو 2007.

9- ابن عاشور (محمد الطاهر)، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984،

10-محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (تفسير)، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، محمد مصطفى الخن ومعتز كريم الدين، مؤسسة الرسالة، 2006.

11-ابن القيم (ـ الجوزية)، بدائع الفوائد، دار الكتب العربية، بيروت.

12- ابن نبي (مالك): الظاهرة القرآنية، دار الفكر، 1981.